

وزير اتابكة * الموصل جمال الدين الاصفهاني

(٥٢١هـ / ١١٢٧م - ٥٥٩هـ / ١١٦٣م)

د. علي سلطان عباس*

ملخص البحث:

يتناول البحث دراسة شاملة لشخصية تاريخية ذاعت شهرتها في العهد الاتابكي وهو الوزير جمال الدين الاصفهاني الذي ارتبط اسمه بمدينة الموصل، وقد اعتمد البحث على دراسة وتحليل النصوص التاريخية من اجل رسم صورة واضحة ومتكاملة لهذا الوزير بيّدا البحث بمقدمة عن مدينة الموصل وبدايات ظهور منصب الوزارة ومن ثم التعرف على سيرة هذا الوزير وصفاته وأخلاقه حيث اشتهر بالكرم العجيب الذي شمل مشارق الارض ومغاربها، وجاء المبحث الآخر للحديث عن اهم المناصب التي تولاها جمال الدين الاصفهاني، و من ثم الحديث عن دوره في الحفاظ على استمرار الحكم في اسرة زنكي وأولاده من بعده من خلال التصدي لمحاولات السب ارسلاّن لانتزاع السلطة من ايدي اسرة زنكي، اما المبحث الرابع فخصص للحديث عن دور هذا الوزير في حل الازمة الخطيرة بين الأخوين (بين قطب الدين مودود ونور الدين زنكي) وخصّصت المراحل الأخرى للحديث في رعايته للحركة العلمية وإكرام أهل العلم ثم تطرق البحث الى الحديث عن أهم إنجازاته العمرانية في مدينة الموصل والأماكن المقدسة في مكة والمدينة، واختتم البحث بشح قصة اعتقاله وأسبابها ووفاته في داخل معتقله سنة (٥٨٨ هـ). كما ضم البحث قائمة توضح اهم النتائج التي توصل اليها البحث.

The minister of Mosul Atabik Jamal-iddin Al-Asfahani

Dr. Ali Sultan

College of Education / University of Kirkuk

Abstract:

* رئيس قسم التاريخ/ كلية التربية/ جامعة كركوك

دراسات موصلية - العدد الحادي عشر - كانون الثاني - ٢٠٠٦

The research studies a historical figure who was famous during the Atabik reign, Jamal-iddin Al-Asfahani.

The research studies and analyzes the historical texts in order to depict a clear picture about this figure.

The research falls into an introduction and four axes. The introduction is dedicated to present information about Mosul and a background about the post of ministry.

The first axis tackles Al-Asfahani's biography. The second axis shows the most important positions which Al-Asfahani was in charge of.

The fourth axis was dedicated to talk about dangerous eris between the tow brothers (Kutub iddin Mulud and Nur-iddin Zanki) and his role in defusing it.

المقدمة:

تعد مدينة الموصل واحدة من المدن العربية الإسلامية العريقة في تاريخها وحضارتها وموقعها الجغرافي المتميز، وهذا ما جعل دورها مشهودا في إبراز العديد من الشخصيات التي لمعت أسماؤها في تاريخ هذه الأمة ومنهم الوزير جمال الدين الأصفهاني، موضوع بحثنا الذي يتناول حياة وأخلاق هذا الوزير وأهم المناصب التي شغلها، ومن ثم إنجازاته السياسية والعلمية والعمرانية ونختتم هذا البحث بروايات اعتقاله ووفاته.

ولابد لنا ونحن نتكلم عن حياة وزير من الوزراء في العهد الاتابكي ان نعطي فكرة عن بداية ظهور الوزارة كنظام أدارى، حيث عرفت في العراق بالعصر العباسي الأول وتحديدا في خلافة عبد الله بن محمد أبو العباس المعروف بالسفاح (١٣٢-١٣٦هـ / ٧٤٩-٧٥٣ م) الذي عين أبا سلمة الخلال وزيرا له ولقب بوزير آل محمد^(١)، واستمر نظام الوزارة متبعا حتى سقوط الدولة العباسية سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م، ولقد تأثرت النظم السلجوقية كثيرا بالنظم العباسية آنذاك ومنها منصب الوزارة الذي أصبح من أعلى المناصب في الدولة السلجوقية حيث كان له حق الإشراف على جميع مؤسسات الدولة وشؤونها الإدارية ومن واجباته أيضا "تقديم النصيحة والمشورة للسلطان، وكان يشترط في الشخص الذي يتولى هذا المنصب أن يكون ذا علم وأخلاق وإمام بالقوانين والقواعد وأوضاع الدواوين، وهكذا كان من الطبيعي أن يتخذ الاتابكة في مدينة الموصل وزراء لهم جريا على عاداتهم في تطبيق النظم السلجوقية، ويعتبر جمال الدين الأصفهاني من ابرز الشخصيات التي شغلت هذا المنصب في الدولة الاتابكية بالموصل^(٢).

١- سيرته وأخلاقه:

هو أبو جعفر محمد بن علي بن أبي المنصور الملقب بجمال الدين المعروف بالجواد الأصفهاني^(٣). من أسرة عرفت بتولي مناصب مهمة في البلاط السلجوقي، فجدّه أبو المنصور كان فهادا للسلطان السلجوقي ملكشاه بن الب ارسلان (٤٦٥-٤٨٥هـ)، ووالده الكامل بن علي كان أديباً مشهوراً ذو مكانة عالية إلى درجة تنافس الملوك والوزراء والسلطين على استخدامه^(٤)، وهكذا نشأ جمال الدين في أسرة تشتهر بالأدب والعلم وتهذب في بلاط السلطين مما صقل مواهبه وجعله يبرز في مجال الأدب ويظهر كفاية ومقدرة عالية فاستخدمه السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه في ديوان العرض السلطاني* وقد اثبت براعة في هذا المنصب وذاعت شهرته ووصلت إلى عماد الدين زنكي^(٥) الذي اصطحبه عندما تولى الموصل وهكذا تفتحت أمامه أبواب الشهرة كما سنرى لاحقاً.

لقد أطنبت المصادر التاريخية في وصف أخلاق جمال الدين الأصفهاني فكان حسن المحاضرة، مقبول المفاكحة حديثه عذب ومحاورته جيدة، وهذا ما جعله من المقربين لعماد الدين زنكي وصاحب شهرة واسعة في أنحاء العالم الإسلامي^(٦) كما أنه امتاز أيضا بالرفق والعدل بالرعية^(٧). وقد ركزت هذه المصادر على كرمه العجيب الذي كان السبب في منحه لقب الجواد. وهنا يجب الإشارة إلى كرمه الذي لم يظهر في عهد عماد الدين زنكي بل ظهر في عهد ابنه سيف الدين غازي (٥٤١-٥٤٤هـ) حيث بسط يده واخذ يبذل الأموال^(٨) وينفقها في أعمال البر بشكل واسع^(٩) والأمتله على كرمه عديدة نذكر منها، عندما مرت مدينة الموصل بأزمة اقتصادية شديدة في عصره حيث نفذت الأقوات وشحت وعلت الأسعار فكان يرسل لرجل من اهل الصلاح في الموصل يدعى الشيخ عمر الملا الأموال لينفقها وكلما نفذت يعلمه فيعطيه غيرها وهكذا حتى انفق جميع ماله فارسل له فراش داره من بسط ومحافر ليبيعهها ويتصدق بثمنها. وبعدها أرسل ملابسه وعمامته ليبيعهها ويتصدق بثمنها للفقراء والمحتاجين فلما وصلت الثياب إلى الشيخ عمر "بكى وباعها وتصدق بثمنها"^(١٠).

كما انه انشأ في مدينة الموصل دار كبيرة متخصصة لإطعام الغرباء الوافدين إلى المدينة ورعاية أبناء السبيل الذين انقطعتم بهم الوسائل في هذه المدينة^(١١) وبلغ ما ينفقه كل يوم في هذا المجال مائه دينار أميرى فضلا" عن الاعطيات للائمة والصالحين وأرباب البيوت، وكان ينفق

أيضا عشرة آلاف دينار كل سنة لافتداء الأسرى المسلمين في بلاد الشام^(١٢). وهكذا أصبحت مدينة الموصل في عهده " ملجأ لكل ملهوف ومفرجا لكل ومكروب ولم يكن في زمانه من يضاهيه ولا يقاربه في الجود والنوال والإحسان والافضال "^(١٣). وقد وصلت صدقاته إلى بلاد المشرق والمغرب فقد كان يبعث بها إلى خراسان و العراق والبصرة والكوفة وبغداد والشام ومصر والحجاز واليمن ليتنعم بها الفقهاء والعلماء والزهاد وغيرهم^(١٤).

ولهذا فقد تسابق الشعراء في مدحه بقصائد طويلة تغنت بكرمه وأخلاقه نذكر منها أبيات من قصيدة الشاعر أبو الفوارس سعد بن محمد الصفي المعروف بحيص بيص^(١٥).

شمس من الإحسان مم ضياؤها	بل أية جاءت بحجه مرسل
يعطي الجزيل لسائلي معروفة	ويجود بالنعمى إذا لم يسأل
من سمرقند إلى تهامة شاهد	فضل الجمال على الحيا المتهلل
السحب تمطر ما تظل وجوده	يسري ودار مقامه بالموصل ^(١٦)

المناصب التي تقلدها:

أول المناصب التي تولها ديوان العرض للسلطان (محمود بن محمد ملكشاه) وعندما اظهر براعة وتميزاً في هذا المنصب اخذ يتدرج في الصعود حتى اصبح وزيراً لخصبك بن كند غدي وهو أحد أمراء الدولة السلجوقية، واستمر في تميزه فذاع صيته و علت شهرته لتصل الى مسامع عماد الدين زنكي^(١٧)، الذي كان يبحث في هذا الوقت عن رجال أكفاء يثق بهم بعد ان صدر قرار توليه مدينة الموصل في رمضان من سنة (٥٢١هـ/١١٢٧م)^(١٨)، حيث شرع في إخضاع المناطق التابعة لهذه المدينة واخذ يكافئ المخلص منهم ويجعل له اليد الطولى فيما ناله من تشريف بولاية الموصل فبادر بإسناد المناصب الكبيرة في إقليمه اليهم، وفي مقدمة هؤلاء الرجال الأكفاء جمال الدين الأصفهاني حيث ولاه في البداية مدينة نصيبين^(١٩) في العام التالي من استيلائه عليها، فأظهر نزاهة ومقدرة وكفاية فأضاف اليه مدينة الرحبة^(٢٠)، وقد اثبت تميزه وبراعته في إدارة هاتين المدينتين والمناطق التابعة لها بكل إخلاص وولاء لعماد الدين زنكي ولهذا أصبح من اكبر المقربين إليه فجعله المشرف على جميع مملكته وحكمه تحكيماً لا مزيد عليه حتى تجاوزت صلاحياته صلاحيات الوزير ويمكن القول انه أصبح الرجل الثاني بعد عماد الدين زنكي^(٢١).

ولقد أثبتت الأحداث التاريخية اللاحقة بعد نظر عماد الدين زنكي في اعتماده على هذا الرجل ومنحه هذه الصلاحيات المطلقة في مملكته، فقد لعب جمال الدين دوراً كبيراً في المحافظة على حكم آل زنكي لمدينة الموصل والمناطق التابعة لها بعد مقتل عماد الدين زنكي وهو يحاصر قلعة جعبر^(٢٢) سنة (٥٤١ هـ/١١٤٦م) حيث حاول الملك ألب ارسلان وهو ابن السلطان محمود السلجوقي استغلال الاضطرابات والانقسامات التي حدثت في معسكر زنكي بعد انتشار خبر مقتله وانسحب ابنه نور الدين محمود الذي اخذ خاتم والده وقواته المحاصرة للقلعة وسار بها الى مدينة حلب^(٢٣) التي وصلها وملكها في ربيع الآخر من سنة (٥٤١ هـ/١١٤٦م) وهكذا سيطر على جميع أملاك والده في بلاد الشام وهي مدن (الرها، حران، حمص وحماه)^(٢٤).

دوره في الحفاظ على حكم أسرة زنكي:

كان الوزير جمال الدين من جملة العساكر المحاصرة لقلعة جعبر برفقة عماد الدين زنكي وشاهد أطماع ألب ارسلان واستعداداته من اجل امتلاك مدينة الموصل^(٢٥) وهنا بدأ يخطط لإحباط هذه المحاولة والحفاظ على بقاء مدينة الموصل بأيدي أولاد سيده عماد الدين زنكي وتحت حكمهم فانتهج سياسة الخديعة والمراوغة مع الملك ألب ارسلان الذي كان موجوداً أيضاً ضمن المحاصرين لهذه القلعة. فكان إجراء جمال الدين الأول هو الاتصال بالأمير صلاح الدين الباغيساني والاتفاق معه والتعاون من اجل مواجهة أطماع ألب ارسلان وإحباط مؤامراته، فسارا إليه وتظاهرا بحبهما له ومحاولة مساعدته في السيطرة على مدينة الموصل "فقر بهما طمعاً في أن يكونا عوناً له على تحصيل عرضه"^(٢٦)، وهكذا نجح جمال الدين وصلاح الدين في كسب ثقته ألب ارسلان.

وكانت الخطوة الثانية لجمال الدين لإحباط محاولة ألب ارسلان هي الاتصال بنائب عماد الدين زنكي على الموصل وهو الأمير زين الدين علي بن بكتكن وأخباره بمقتل عماد الدين زنكي الذي أشار عليه بالإسراع في استدعاء ابنه سيف الدين غازي الأول المقيم في شهرزور^(٢٧) فأجابه وأرسل من يحضر سيف الدين^(٢٨)، أما الأجراء الثالث لجمال الدين فتمثل بإقناع ألب ارسلان بالتوجه الى مدينة الرقة^(٢٩). وحسن له الاشتغال بشرب الخمر وأرسل إليه عدداً من الجواري وشيئاً من المال ليهبه للمغنيات وهون عليه أمر البلاد، وبينما هو في غفلة من أمره بادر الوزير جمال الدين في استمالة العسكر وتحليفهم لسيف الدين غازي الأول وأمرهم بالتوجه إلى الموصل والالتحاق بسيف الدين غازي الأول^(٣٠).

وبعد مدة من الزمن رحل ألب ارسلان إلى الرقة وأقام بها أياماً ثم توجه إلى سنجار^(٣١) وفي هذه الأثناء علم جمال الدين الذي يبدو أنه كان يتابع موضوع وصول سيف الدين زنكي إلى الموصل والدخول فيها، فراسل جمال الدين صاحب سنجار سراً وطلب منه أن لا يسلم المدينة بحجة أنها تابعة للموصل وعليه إخضاع الموصل أولاً ثم تستسلم سنجار له^(٣٢). وهنا اقنع جمال الدين ألب ارسلان بضرورة التوجه إلى الموصل وإخضاعها فعبرت قواته نهر دجلة وعند مدينة بلد^(٣٣) غادر جمال الدين معسكر ألب ارسلان سراً ودخل مدينة الموصل التي يبدو انه كان على اتصال دائم بها لذلك سمح له بالدخول دون أي خوف على اعتبار انه كان مع جيش ألب ارسلان، فاجتمع بسيف الدين غازي واطلعه على أسرار قوات عدوه وضعفها فأرسل الأخير جيشاً من الموصل بقيادة الأمير عز الدين أبا بكر الدبس قبضوا على ألب ارسلان واحتجزوه في مدينة الموصل وبهذا انتهى خطره إلى الأبد. وأثمرت جهود جمال الدين الأصفهاني في إحباط محاولات ألب ارسلان لانتزاع السلطة من أيدي أولاد عماد الدين زنكي. وتقديراً لجهوده السابقة الذكر فقد عينه سيف الدين غازي وزيراً له وخوله في إدارة شؤون مدينة الموصل ومنحه عشر دخلها^(٣٤).

دوره في إنهاء الأزمة الخطيرة بين الأخوين:

من الطبيعي أن تنير الصلاحيات الواسعة التي منحت للوزير جمال الدين، الأصفهاني كراهية وحسد بعض أمراء الموصل وعمالها وفي مقدمتهم صاحب سنجار المقدم عبد الملك، ولد شمس الدين محمد^(٣٥)، فاغتنموا فرصة وفاة سيف الدين غازي (في جمادى الآخرة سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م) فراسلوا نور الدين محمود حاكم حلب ليتسلم مدينة الموصل على اعتباره أكبر سناً من أخيه قطب الدين مودود وقد اتفق جمال الدين الأصفهاني مع أمير الجيوش في الموصل وزين الدين على كوجك وباقي أمراء وأجناد الموصل على تعيين اتابك للموصل والمناطق التابعة لها^(٣٦) وهذا ما سبب توتراً شديداً في العلاقات بين الأخوين نور الدين وقطب الدين والذي زاد الموقف تعقيداً دخول نور الدين مدينة سنجار بصحبة سبعين فارساً من أكابر دولته وأمرائه^(٣٧).

اعتبر قطب الدين مودود هذا العمل اعتداءً من أخيه نور الدين على بلاده باعتبار سنجار إحدى ولايات اتابكية الموصل ولهذا جهز جيشاً كان على رأسه هو ووزيره جمال الدين الأصفهاني وأمير جيشه زين الدين كوجك^(٣٨) فنزلوا جميعاً في بلدة تلعفر^(٣٩) استعداداً لمهاجمة سنجار إلا أن انفصال جماعة من عسكر الموصل وانضمامهم إلى قوات نور الدين في سنجار جعل موقف قطب الدين في غاية الصعوبة والحرج^(٤٠) وهنا بررت الحاجة إلى رجل حكيم ينقذ

الموقف، ولا غرابة أن يكون هذا الرجل هو نفس الرجل الذي حافظ على حكم أسرة زنكي في مدينة الموصل كما سبق شرحه.

وهنا يجب الإشارة إلى العقلية السياسية والعسكرية للوزير جمال الدين في تحليله للموقف فقد رأى أن أي صدام مسلح بين الأخوين سيكون له نتائج سلبية على الطرفين وعلى الأسرة الزنكية، وإيجابية بالنسبة لأعدائهم والمتربصين بهم من أمراء السلاجقة والصليبيين في بلاد الشام ويبدل ميزان القوى لصالحهم ولهذا يجب حل هذه المشكلة بين الطرفين عن طريق عقد صلح مرضي، وذلك بتنازل قطب الدين لأخيه نور الدين محمود عن حمص والرحبة والرقبة مقابل أن يرحل عن مدينة سنجار لأهميتها بالنسبة لاتابكة الموصل، وأهمية المناطق المتنازل عنها لاتابكة حلب وقد توجه جمال الدين بهذه المقترحات لعرضها على نور الدين في مدينة سنجار بعد أن اقنع قطب الدين بها وفعلاً نجح في إقناع نور الدين بأفكاره لحل النزاع فوافق الأخير على هذا العرض ورحل من سنجار إلى بلاد الشام بعد أن استولى على كل أموالها وذخائرها^(٤١).

وهكذا نجح الوزير جمال الدين الأصفهاني في حل هذه الأزمة الخطيرة بين الأخوين ضد عدوهم المشترك في بلاد الشام المتمثل بالصليبيين المتربصين بهم وأصبحت علاقتهم أفضل مما سبق متينة مبنية على الثقة المتبادلة ووصلت إلى درجة إتصال نور الدين بأخيه قطب الدين في أوائل ذي الحجة من سنة (٥٥٣هـ/١١٥٨م) بعد أن تعرض لمرض كاد أن يودي بحياته فأوصى بمملكته من بعده لأخيه قطب الدين مودود وفعلاً خرج بعساكره من الموصل إلى دمشق فوصلت أخبار بتحسّن صحة أخيه، فقرر إرسال وزيره جمال الدين الأصفهاني إلى مدينة دمشق لمقابلة نور الدين وإطلاعه على الموقف النهائي فوصل هذا الوزير إلى دمشق في يوم السبت ٨ صفر من سنة (٥٥٤هـ/١١٥٩م) واجتمع بنور الدين وعرض عليه خدمات وإمكانات أخيه فشكره وحمله الشكر والتقدير لموقف أخيه قطب الدين^(٤٢) وإرسال جمال الدين دليل آخر على مدى ثقة واعتماد قطب الدين على هذا الرجل رغم سرية المهمة وخطورتها وقد قام بها على أتم وجه.

رعايته للحركة العلمية:

على الرغم من المشاغل الكثيرة لهذا الوزير في المجالات السياسية السابقة الذكر إلا أنه لم يهمل الجوانب العلمية فقد عرف بتشجيعه للعلم والعلماء ورعايتهم والاهتمام بهم من خلال متابعة نشاطاتهم وحضور مجالسهم في جوامع الموصل وخاصة أيام الجمع كما أكد ذلك شاهد عيان وهو العماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م) الذي زار مدينة الموصل في ذي القعدة سنة

(٥٤٢هـ/١٤٧٧م) .. "فحضرت عند جمال الدين بالجامع في جمعيتين وتكلمت عنده مع الفقهاء في مسألتين" (٤٣) وقد مدح رعاية الوزير للعلم والعلماء بقصيدة نذكر منها:
فلا أدركت في أدبي مراما ولا صادفت في حسبي منالا
ولا وخذت إليكم بي جمال ولا واليت مولانا الجمال
وقائلة أفي الدنيا كريم سواه فقلت لا، وأبي الغللا. (٤٤)

وتقديراً له واعترافاً بالجميل، فقد عمد احد هؤلاء العلماء على تسمية احد مؤلفاته في الطب على اسمه وهو الطبيب الموصل المشهور مهذب الدين بن هبل (ت ٦١٠هـ/١٢١٣م) (٤٥) الذي ألف كتابه في الطب اسماء "الطب الجمالي" (٤٦). ومن إنجازات هذا الوزير إقناعه للعالم النحوي سعيد بن المبارك بن الدهان (ت ٥٦٩هـ/١١٧٣م) على الإقامة والاستقرار في مدينة الموصل وتصدره للإقراء والإفادة والتصنيف فيها بعد أن حضي بالإكرام والتقدير، ويذكر بان هذا العالم لم تكن في نيته الاستقرار في الموصل وإنما كان قصده الرحيل من بغداد إلى دمشق وذلك سنة (٥٤٤هـ/١١٤٩م) (٤٧)، ومن مظاهر اهتمام هذا الوزير بالعلماء في الموصل ومتابعته للمتغييبين عن مجلسه والعتب عليهم كما حدث للعالم النحوي المعروف بابن المنقي (٥٦٢هـ/١١٦٦م). ومن الذين حظوا بكرم هذا الوزير الطبيب والشاعر علي بن يقظان السبتي (٤٨). ولذلك فقد رد على كرمه بقصيدة طويلة منها:

فكم قد قطعنا من مفاوز بعدهم وخضنا بها الصعب المرام من الوهد
إلى أن وصلنا الموصل الآن فانتهت بنا لجمال الدين رحلة القصد (٤٩)
أعماله العمرانية:

كان لهذا الوزير إنجازات عمرانية ظلت خالدة بعد وفاته وخير شاهد على رعايته واهتمامه بمدينة الموصل والأماكن المقدسة في مكة والمدينة، فعلى صعيد مدينة الموصل والمناطق التابعة لها في سنجار ونصيبين فإنه بنى العديد من الربط وهي عبارة عن أماكن للعبادة ولعقد المجالس العلمية والفقهية ولتوزيع الصدقات وبلغ حبه لهذه الربط انه دفن في أحدها مؤقتاً (٥٠). قيل نقله إلى المدينة المنورة كما سيأتي شرحه لاحقاً. كما انه قام بإنشاء الجسور والقناطر وأشهرها ذلك الجسر الذي بناه في جزيرة ابن عمر (٥١). حيث استخدم في بناء الحجارة المنحوتة (الكلس) والرصاص وربطها بالحديد بين البنيان ألا أن هذا العمل لم يكتمل بسبب إلقاء القبض عليه (٥٢).

أما أهم أعماله العمرانية في الأماكن المقدسة. تجديده بناء مسجد الخفيف بمنى ومسجد آخر على جبل عرفات فضلاً عن بناءه الدرج ليسهل عملية صعود الحجاج إلى أعلى هذا الجبل في مراسيم الحج، كما انه قام بإيصال الماء العذب الصالح للشرب إلى هذا الجبل بعملية صعبة ومكلفة مادياً أيضاً، عن طريق الاتفاق مع قبائل سكنت وادي النعمان وهو واد يقع بين مكة والطائف من اجل السماح بجريان الماء إلى جبل عرفات في موسم الحج مقابل منحهم أموالاً طائلة، كما انه أحاط مدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بسور ليمنع الأعراب من الدخول إليها. وجدد أيضاً أبواب المسجد الحرام كلها ومنها باب الكعبة وغطاه بالذهب والفضة^(٥٣). من أعماله الأخرى لخدمة حجاج بيت الله إنشائه صهاريج وحفره مواقع لتتجمع بها مياه الأمطار على طول الطرق المؤدية إلى مكة والمدينة لغرض توفير المياه لشرب و اغتسال الحجاج، فضلاً عن إنشائه حماماً ثانياً في مكة ليستحم بها الحجاج^(٥٤). وقد انفق على أعماله السابقة الذكر أموالاً طائلة سحبت من خزائن مدينة الموصل فتشير المصادر الى أن عملية الأنفاق على اعماله العمرانية في مكة والمدينة استمرت مدة طويلة وربما كانت هذه النفقات الطائلة السبب الحقيقي في اعتقاله.

اعتقاله ووفاته:

مما سبق ذكره نستنتج بان الوزير جمال الدين قد بالغ في أنفاق أموال طائلة من خزانة مدينة الموصل في أعمال البر والصدقات في مشارق الأرض ومغاربها وكذلك استمراره بالإنفاق على إعمار الأماكن المقدسة في مكة والمدينة مدة طويلة فضلاً عن الأموال الطائلة التي كان ينفقها في بناء جسور في جزيرة ابن عمر فترة اعتقاله. وهذا ما جعل اتابك الموصل قطب الدين مودود يستاء منه وينفذ صبره عليه رغم أعماله الجليلة تجاه الأسرة الزنكية بشكل عام وتجاهه بشكل خاص ومما زاد غضبه كثرة الوشائيات من بعض رجال أمير الجيوش زين الدين بقولهم: "يأخذ أموالك فيتصرف بها"^(٥٥) ألا أن الاتابك قطب الدين لم يجرأ على إلقاء القبض عليه إلا بعد التنسيق مع أمير الجيوش زين الدين والحصول على موافقته ودعمه وذلك بسبب العلاقة الوطيدة والعهود والمواثيق بينه وبين الوزير جمال الدين الأصفهاني ويبدو أن زين الدين اضطر للموافقة على حبس الوزير بسبب ضغوط رجاله الذين وجدوا أن مصلحتهم تقتضي إزاحة هذا الوزير من منصبه، وهذا ما حدث حيث القي القبض على الوزير في رجب من (٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م)^(٥٦). وحبس في قلعة بالموصل لمدة سنة فأصابه مرض وتوفي في الحبس في شعبان من سنة (٥٥٩ هـ / ١١٦٣ م)^(٥٧) دفن مؤقتاً في أحد رباطات الموصل ثم نقل بعد ذلك إلى مكة المكرمة حيث

طافوا به حول الكعبة ثم صعدوا به إلى جبل عرفات وطافوا به مراراً ثم حمل إلى مدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ودفن في البقيع برباط بناه لنفسه شرقي مسجد النبي على بعد خمسة عشرة ذراعاً عن قبر الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)^(٥٨) بعد أن طافوا به مرارا حول حجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم).

فانشد أحد الأشخاص المشاركين في مراسم دفنه قصيدة مطلعها:

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما
سرى جوده فوق الركاب ونائله
يمر على الوادي فتتني رماله
عليه وبالنادي فتتني أرامله^(٥٩)

وهنا يجب أن نشير أن الذي تكفل بعملية نقل الوزير جمال الدين من مدينة الموصل إلى مكة المكرمة والمدينة وتكاليف حجه والطواف به هو أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الأيوبي تنفيذاً لاتفاق مع الوزير جمال الدين الأصفهاني " قال بيني وبين أسد الدين شيركوه عهد من مات قبل صاحبة يحمله إلى المدينة"^(٦٠).

الخاتمة

تناول البحث دراسة شاملة لشخصية تاريخية ذاعت شهرتها في العهد الاتابكي وهو الوزير جمال الدين الأصفهاني فقد ارتبط اسمه بمدينة الموصل، وقد اعتمد البحث على دراسة وتحليل النصوص التاريخية من أجل رسم صورة واضحة ومتكاملة لهذا الوزير الذي لم يعط حقه في الدراسات السابقة، ومن خلال هذا البحث أمكن التوصل إلى النتائج التالية:-

أولاً: نشأ الوزير جمال الدين في أسرة مشهورة، عملت في البلاط السلجوقي وهذا ما جعله محط أنظار الأمراء والسلطين السلاجقة ومهد السبيل لإختياره من قبل عماد الدين زنكي لمنصب ولاية نصيبين والرحبة وبعد ذلك أصبح الرجل الثاني في أتابكية الموصل.

ثانياً: اشتهر بالعدل ورعاية المجتمع وكذلك برز بكرمه الذي ظهر بعد وفاة عماد الدين زنكي.

ثالثاً: عرف جمال الدين بوفائه لعماد الدين زنكي وأولاده من بعده، فضل على ولائه لهم حتى وفاته.

رابعاً: اشتهر بعقليته السياسية وحله لمعظم المشاكل والأزمات التي وقعت بين أولاد عماد الدين زنكي بشكل ودي مما جعل العلاقة بين الاخوان متينة ومبنية على الثقة.

خامساً: اشتهر بتشجيعه للحركة العلمية في مدينة الموصل وإكرام العلماء الوافدين إليها ومحاولة إقناعهم بالإستقرار فيها.

سادساً: كان لهذا الوزير أعمال عمرانية ظلت خالدة حتى بعد وفاته وخير شاهد على رعايته وإهتمامه بمدينة الموصل والأماكن المقدسة في مكة والمدينة.
سابعاً: ذهب هذا الوزير ضحية الحسد والوشايات من بعض الأمراء فأعتقل وتوفي في السجن سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٢م.

الهوامش:

- * الاتابك لفظ تركي يتألف من مقطعين الاول "اتا" بمعنى اب والثاني "بك" ويعني امير ومجموعتها يعني "أبو الأمراء". أول من لقب بهذا اللقب هو نظام الملك وزير ملكشاه سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٣م، ومن واجبات الاتابك الوصاية على واحد أو أكثر من أولاد السلطان الغير بالغين سن الرشد. القلقشندي، أبو العباس احمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الانشا (مصر، د/ت): ١٨/٤.
- (١) الجهشياري، أبي عبدالله محمد بن عبدوس، كتاب الوزراء والكتاب (القاهرة ١٩٣٨)، ص ٩٠؛ عبد العزيز سالم، العصر العباسي الأول (الإسكندرية، ١٢٩٨هـ)، ص ٢٥٨-٢٥٩.
- (٢) رشيد الجميلي، دولة الاتابكة في الموصل (بيروت، ١٩٧٠ ط١)، ص ٢٣٩.
- (٣) ابن خلكان، وفيات الاعيان (دار الفكر، د/ت): م ٥ / ١٤٣.
- (٤) البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق (بيروت، ١٩٨٠، ط٣)، ص ١٩٣.
- (٥) عماد الدين زكي: وهو أحد امراء الدولة السلجوقية صدر أمر توليه حكم الموصل في، رمضان سنة (٥٢١ هـ / ١١٢٧م) وقتل في سنة (٥٤١ هـ / ١١٤٦م) وهو يحاصر قلعة جعير. للمزيد ينظر: ابن الأثير، التاريخ الباهر في دولة الاتابكية في الموصل (القاهرة، ١٩٦٣)، ص ٢٤؛ عماد الدين خليل، عماد الدين زكي (موصل، ١٩٨٥)، ص ٢٤.
- (٦) ابن خلكان، وفيات الاعيان: م ٥ / ١٤٣؛ عماد الدين خليل، ص ٢٢٦.
- (٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (بيروت، ١٩٦٦): ١١ / ٣٠٦؛ الباهر، ص ١٢٨.
- (٨) البنداري، تاريخ آل سلجوق ص ١٩٣؛ ابن خلكان، وفيات: م ٥ / ١٤٤.
- (٩)، الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب (بيروت، د/ت): ٤ / ١٨٥.
- (١٠) ابن الأثير، الباهر، ص ١٢٩.
- (١١) ابن جبير، رحلة ابن جبير (بيروت، ١٩٦٤)، ص ١٠٤.

- (١٢) ابن الأثير، الكامل: ١١ / ص ٣٠٨-٣٠٩.
- (١٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الاعيان (الهند، ١٩٥١، ط ١): م ٨ / ٢٤٨.
- (١٤) المصدر نفسه، م ٨ / ٢٤٩.
- (١٥) ينظر ترجمته: الاصبهاني، خريدة القصر، القسم العراقي، تحقيق محمد بهجت، (بغداد، ١٩٥٥)؛ ١ / ٢٠٢.
- (١٦) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (بيروت، د/ت): ١ / ١٣٥؛ الاصبهاني، المصدر السابق: م ٨ / ٣٠٢.
- (١٧) البنداري، تاريخ أل سلجوق، ص ١٩٣؛ ابن خلكان، وفيات الاعيان: م ٥ / ١٤٣.
- (١٨) ابن الأثير، الباهر، ص ٧٥؛ أبو شامة، الروضتين: ١ / ٧٥.
- (١٩) نصيبين: مدينة عامرة في بلاد الجزيرة في ديار ربيعة. ياقوت الحموي، معجم البلدان (بيروت، ١٩٥٣): ٧ / ٣٦١.
- (٢٠) الرحبة: مدينة في بلاد الشام تبعد عن دمشق ثمانية أيام وعن حلب خمسة أيام حسب تقديرات ياقوت والمراد بها هنا المدينة الواقعة على شاطئ نهر الفرات. الحموي، معجم البلدان: ٤ / ٢٣٩.
- (٢١) ابن الأثير، الباهر، ص ١١٨؛ ابن خلكان، وفيات الاعيان: م ٥ / ص ١٤٣-١٤٤.
- (٢٢) قلعة جعبر: تقع على نهر الفرات بين بلس والرقبة بالقرب من صفين وكانت تعرف قديما بأسم دوسر وكان يملكها رجل من بني قشير أعمى يقال له جعفر بن مالك. ياقوت، معجم البلدان: ٢ / ٨٤.
- (٢٣) حلب: مدينة شامية عظيمة واسعة كثيرة الخيرات وهي قسبة جند قنسرين. ، ياقوت، معجم البلدان: ٢ / ٢٨٢-٢٨٣.
- (٢٤) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول (بيروت، ١٩٥٨)، ص ٢٠٧.
- (٢٥) ابن الأثير، الباهر، ص ٧١-٧٢.
- (٢٦) المصدر نفسه، ص ٨٥.
- (٢٧) شهرزور: كورة واسعة في الجبال بين أربيل وهمدان. ياقوت، معجم البلدان: ١٢ / ٣٧٥.
- (٢٨) البنداري، تاريخ، ص ١٩٠.

- (٢٩) الرقة: مدينة مشهورة على نهر الفرات تبعد عن مدينة حران ثلاثة أيام. ياقوت، معجم البلدان: ٤/ ٥١٦.
- (٣٠) أبْن الأثير، الكامل: ١١/ ١٢٣؛ رشيد الجميلي، دولة الأتابكة، ص ٦١.
- (٣١) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام وهي في لحف جبل عالي. ياقوت، معجم البلدان: ٠/ ١٤٤.
- (٣٢) أبو شامة، الروضتين: ١/ ١٢١.
- (٣٣) بلد: مدينة قديمة على نهر دجلة فوق مدينة الموصل بينهما مسافة سبعة فراسخ وإسمها بالفارسية شهر أباذ. ياقوت، معجم البلدان: ٢/ ٢٦٥-٢٦٧.
- (٣٤) ابن الأثير، الباهر، ص ٨٤؛ ابن خلكان، وقياة الاعيان، م ٥/ ١٤٤.
- (٣٥) ابن الأثير، الكامل: ١١/ ١٣٩.
- (٣٦) البنداري، تاريخ، ص ٢٠٥؛ ابن الأثير، الكامل: ١١/ ١٣٨.
- (٣٧) ابن الأثير، الباهر، ص ٩٥.
- (٣٨) ابو شامة، الروضتين: ١/ ١٧٣.
- (٣٩) تلعفر: وهي قلعة وربض بين سنجار والموصل في وسط واد فيه نهر جاري وهي على جبل منفرد حصينة ومحكمة. ياقوت الحموي، معجم: ٢/ ٤٠١-٤٠٢.
- (٤٠) ابن الأثير، الباهر، ص ٩٦؛ رشيد الجميلي، دولة الأتابكة، ص ٨٤.
- (٤١) ابو شامة، الروضتين: ١/ ١٧٣.
- (٤٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (بيروت، ١٩٠٨)، ص ٣٥٧.
- (٤٣) البنداري، تاريخ، ص ١٩٤؛ عبد الجبار، الحياة العلمية في الموصل في عصر الأتابكة رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، ١٩٨٦، ص ٨٣.
- (٤٤) البنداري، تاريخ، ص ١٩٤.
- (٤٥) هو ابو الحسن علي بن أحمد ويعرف بالخلاطي ولد في بغداد سنة (٥١٥هـ / ١١٢١م) / ابن ابي اصبيعة، عيون الأنبياء في طبقات الأطباء (بيروت، ١٩٦٥)، ص ٤٠٨؛ الصفدي، نكهة الهميان في نكت العميان، (مصر، ١٩١١م)، ص ٢٠٦.
- (٤٦) ابن ابي اصبيعة، عيون الأنبياء، ص ٤٠٨-٤٠٩؛ الصفدي، نكت الهميان، ص ٢٠٦.
- (٤٧) ابن القفطي، انباه الرواة على انباه النحاة، تحقيق محمد ابو الفضل، (القاهرة، ١٩٥٤): ٢/ ٤٨.

(٤٨) شاعر وأديب، وطبيب من أهل مدينة سبته رحل إلى مصر سنة ٥٤٤هـ ومنها سافر إلى اليمن ثم سافر إلى العراق. ينظر ترجمة في: الاصبهاني، فريدة القصر، قسم شعراء المغرب (تونس، ١٩٧٣)، ص ٣٤٤؛ القفطي، تاريخ الحكماء (لايبزك، ١٩٠٣)، ص ٢٣٩-٢٤٠؛ عبد الجبار حامد، الحياة العلمية ص ٨٤.

(٤٩) الاصبهاني، فريدة القصر، قسم شعراء المغرب، ص ٣٤١؛ القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٢٤٠.

(٥٠) ابن كثير، البداية والنهاية (بيروت، د/ت): ٢٤٩/١٢.

(٥١) جزيرة ابن عمر: بلدة تقع فوق مدينة الموصل على بعد ثلاثة أيام تحيط بها مياه نهر دجلة من ثلاثة جهات وهي أشبه بشبه هلال. ،، ياقوت، معجم: ٣ / ١٠٢-١٠٣.

(٥٢) ابن الأثير، الكامل: ٣٠٨/١١؛ الباهر، ص ١٢٩؛ سبط ابن الجوزي، مراة الزمان: ٢٤٩/٨.

(٥٣) ابن الأثير، الباهر، ص ١٢٨؛ الكامل: ٣٠٨/١١؛ سبط ابن الجوزي، مراة الزمان، ٢٤٨/٨.

(٥٤) ابن جبير، الرحلة، ص ١٠٢؛ محمد نزار حميد طه، المشرق العربي الاسلامي من خلال رحلة ابن جبير، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل كلية التربية ٢٠٠١م، ص ١٢٤.

(٥٥) ابن الأثير، الباهر، ص ١١٩.

(٥٦) ابن الأثير، الباهر، ص ١١٩.

(٥٧) ابن الأثير، الباهر، ص ١٢٧. اما ابن خلكان فإنه يذكر انه توفي في العشرة الأخيرة من رمضان المعظم . وفيات الاعيان: ١٤٥/٥.

(٥٨) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (حيدر اباد الركن، ١٣٥٨ هـ، ط ١): ٢٠٩/١٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٢٤٩/١٢؛ ابن خلكان وفيات الاعيان: ١٤٥/٥-١٤٦.

(٥٩) ابن الأثير، الكامل: ٣٠٧/١١؛ أبو شامة، الروضتين: ١ / ١٣٧.

(٦٠) سبط ابن الجوزي، مراة الزمان: ٢٥٠/٨.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن الأثير، عز الدين علي بن ابي الكرم (ت ٦٣٠ هـ).

١- الكامل في التاريخ (بيروت، ١٩٦٦).

٢- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (القاهرة، ١٩٦٣).

- الاصبهاني، (ت ٥٩٧ هـ)
- ٣- خريدة القصر، القسم العراقي، تحقيق محمد بهجت الأثري (بغداد، ١٩٥٥).
- ٤- خريدة القصر، قسم شعراء المغرب، تحقيق محمد المرزوقي ومحمد العمروسي - المطوي (تونس، ١٩٧٣).
- البنداري، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الاصفهاني
- ٥- تاريخ دولة آل سلجوق (بيروت، ١٩٨٠).
- ابن جبير، محمد بن أحمد (ت ٦١٤ هـ)
- ٦- رحلة ابن جبير (بيروت، ١٩٦٤).
- ابن الجوزي، ابي الفرح عبد الرحمن (ت ٥٩٧ هـ)
- ٧- المنتظم في تاريخ الملوك والامم (حيدر اباد الركن، ١٣٥٨ هـ، ط ١).
- الجهشياري، أبو عبدالله محمد بن عبدوس (ت ٣٢١ هـ).
- ٨- كتاب الوزراء والكتاب (القاهرة، ١٩٣٨).
- أبو خلكان، أبو العباس بن شمس الدين أحمد.
- ٩- وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان (دار الفكر، د/ت).
- سبط ابن الجوزي، شمس الدين ابي المطرف يوسف (ت ٦٥٤ هـ)
- ١٠- مرآة الزمان في تاريخ الاعيان (الهند، ١٩٥١).
- أبو شامة، شهاب الدين أبي أحمد عبد الرحمن (ت ٦٦٥ هـ)
- ١١- الروضتين في أخبار الدولتين (بيروت، د/ت).
- الصفدي، صلاح الدين خليل (ت ٧٦٤ هـ)
- ١٢- نكهة الهميان في نكت العميان (مصر، ١٩١١).
- ابن العبري، ابو الفرح غريغوريوس
- ١٣- تاريخ مختصر الدول (بيروت، ١٩٥٨)
- أبو العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحق (ت ١٠٨٩)
- ١٤- شذرات الذهب في أخبار من ذهب (بيروت، د/ت).
- أبو القفطي، جمال الدين (ت ٦٤٦ هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم
- ١٥- أنباه الرواة على أنباه النحاة (القاهرة، ١٩٥٢).
- ١٦- تاريخ الحكماء (لايبزك، ١٩٠٣).
- أبو القلانسي، أبو العلي حمزة (ت ٥٥٥ هـ).

- ١٧- ذيل تاريخ دمشق (بيروت، ١٩٠٨).
- القلقشندي، أبو العباس أحمد (ت ٨٢١هـ).
١٨- صبح الأعشا في صناعة الأنشا (مصر، د/ت).
- أين كثير، الحافظ دمشقي (ت ٧٧٤هـ).
١٩- البداية والنهاية (بيروت، د/ت).
- ياقوت الحموي، ابي عبد الله (ت ٦٢٦هـ).
٢٠- معجم البلدان (بيروت، ١٩٥٣)

المراجع الحديثة

- ١- رشيد الجميلي، دولة الاتابكة في الموصل (بيروت، ١٩٧٠).
٢- عبد الجبار حامد، الحياة العلمية في الموصل في عصر الاتابكة رسالة ماجستير، غير مطبوعة (كلية الاداب، ١٩٨٦).
٣- عبد العزيز سالم، العصر العباسي الاول (الاسكندرية، ١٢٩٨).
٤- عماد الدين خليل، عماد الدين زنكي (الموصل، ١٩٨٥).
٥- محمد نزار حميد طه، المشرق العربي الاسلامي من خلال رحلة ابن رحمة، رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة الموصل - كلية التربية، ٢٠٠١).